

السردى والأثنوغرافى فى الرواية العمانية

Narrative and Ethnography in the Omani novel

د. نوال بومعزة

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادى/الجزائر

Nawalboumaza12@gmail.com

تاريخ القبول: 2022/01/31

تاريخ الاستلام: 2022/01/06

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة رصد مدى انفتاح عالم الرواية على خطابات غير أدبية من مثل توظيف مظاهر الأثنوغرافيا، وقد اكتسبت الرواية العمانية من الخصائص الفنية والأسلوبية والدلالية ما مكّنها من الانفتاح على عوالم الحضارات والتاريخ، فالقارئ لمتنها يلمح ذلك التميّز فى البنية السردية التى تحتضن العديد من الخطابات، ولتأكيد هذه الخاصية تحاول هذه المقاربة ملامسة نصوص روائية عمانية من مثل رواية القناص للكاتب زهران القاسمي ورواية الجاعد الأبيض للكاتب خالد الكندي ورواية الجوهرة والقبطان للكاتب زينة الكلباني، والنصوص كثيرة فى الأدب العماني. ولتتبع تضافر السردى مع الأثنوغرافى فى النصوص السابقة الذكر، اعتمدت آليات النقد الثقافى مع الاستعانة بمنجزات السرديات الحديثة خاصة ما تعلق الأمر بذكر عالم الأسماء الموظفة من شخصيات وقرى وبحار ومدن وتضاريس جغرافية، وعادات وتقاليد. ومن خلال ما سبق حاولت الاشتغال على الإشكاليات الآتية:

كيف تتجلى المظاهر الأثنوغرافية فى الرواية العمانية؟ وكيف يخدم الخطابان بعضهما البعض؟

ماهى جماليات هذا التضافر؟ وماهى مضمراته؟

الكلمات المفتاحية: السردى، الأثنوغرافى، الرواية العمانية، تضافر.

ABSTRACT:

The Omani novel has acquired the technical, stylistic and semantic characteristics that enabled it to open up to the worlds of civilizations and history, the reader of its hints that excellence in the narrative structure that embraces many letters, and to confirm this characteristic this approach tries to touch Omani novel texts such as the novel The Sniper by Zahran Al Qasimi, the novel in Omani literature. In order to trace the alignment of narrative with ethnography in the above-mentioned texts, mechanisms of cultural criticism have been adopted with the help of the achievements of modern narratives, especially with regard to the mention of the world of names employed by personalities, villages, seas, cities, geographical topography, Customs and traditions. Through the above I have tried to work on the following problems:

How are the ethnographic manifestations reflected in the Omani novel? And how do the two speeches serve each other? What are the aesthetics of this car is? And what are its implications?

Keywords: Narrative, Ethnography, Omani narrative, Synergy

1. بورتريه عن تطوّر الرواية العمانية:

إذا ما تصفحنا الأدب العماني، وخاصة مجال الرواية نلاحظ ذلك التنوّع الهائل فى النصوص رغم حداثة التجربة الروائية العمانية، والجدير بالذكر أنّ هناك إجحاف كبير فيما يخص تناول هذه الظاهرة الإبداعية فى الدراسات النقدية العربية المعاصرة، ونكاد نجزم أن افتقار المكتبة العربية عامة والعمانية خاصة إلى الدراسات الأكاديمية حول الرواية فى عمان يعود إلى أنّها حديثة العهد، فعمرها ليس أكثر من عمر النهضة العمانية الحديثة، التي أشرقت شمسها سنة ألف وتسع مائة وسبعين للميلاد، وهي بذلك تلتقي مع القصة العمانية فى تزامن كتابتها فى التاريخ والحدث المشار إليهما آنفاً، ويعدّ عبد الله الطائي ضمن قائمة أوائل العمانيين الذين كتبوا الرواية.

أصدر عبد الله الطائي رائد الرواية العمانية روايتين الأولى : ملائكة الجبل الأخضر 1958، أما الرواية الثانية الشراع الكبير فنشرت عام 1972، والمتتبع للمسارات التطوّرية للرواية العمانية يلاحظ أن مشهدها اليوم أصبح أكثر وضوحاً وتنوّعاً، حيث تتالت الإصدارات المتنوّعة لكاتب شباب يطمحون إلى مغامرة الكتابة التي تعكس أفكارهم وتصوّراتهم، فحققوا بذلك تقدّمًا على مستوى البنيتين الشكلية والموضوعاتية، وتنوّعت بذلك الأسماء وتعدّدت، فمنها من يكتب الرواية للمرة الأولى، ومنها من قدم من منطقة القصة القصيرة، كما قدم آخرون من منطقة الشعر، وقد واكب مؤخرًا الرواية جيل من الكُتّاب أوجدوا لأنفسهم مكانًا فى مساحاتها السردية الأوسع، وهو ما بدا ظاهرة عامة توجّه الشعراء إلى الكتابة سردًا فى حين استمر عدد قليل من جيل الثمانينات والتسعينات فى كتابة روايات جديدة، وغاب بعضهم الآخر قسراً أو اختياراً .

لقد سعت الرواية العمانية عبر مسيرة ارتحالاتها إلى نقل قضايا الذات العمانية وهمومها وتصوّراتها من خلال طرح العديد من المواضيع التي تشكل بالدرجة الأولى خصوصية المجتمع العماني، وقد شكّل محور سرد الصحراء ثيمة بارزة فى الرواية العمانية منذ نشأتها إلى يومنا هذا، فلا شك أن لكل مجتمع خصوصية تميّزه، ولعلّ الطبيعة الصحراوية للمجتمع العماني قد أثرت فى توجّهات الكتابة الروائية العمانية، فكان التغني بها، وكان الحديث عن قسوتها وصعوبة مناخها، كما عكست الأعمال الروائية الصراع بينها وبين محور المدينة، لذلك سنحاول من خلال هذه الدراسة ملامسة هذه الظاهرة السردية الملفتة للانتباه، والتي تشير من خلال تجلياتها إلى ميزات الكتابة الروائية العمانية التي تحاول البحث عن قوالب فنيّة جمالية جديدة تنقل ذلك الزخم الهائل فى الموضوعات المستقاة من طبيعة التركيبة العمانية.

2. مظاهر الأثنوغرافيا فى الرواية العمانية.

أثبتت الدراسات النقدية والمعرفية المعاصرة الصلة القويّة التي تربط الأدب بمختلف البنيات الاجتماعية والثقافية الأخرى، وخاصة فى ميدان العلوم الإنسانية التي تشترك فى ثيمة واحدة، وهي الانسان. ولعلّ العلاقة بين الرواية والبحث الأثنوغرافى تجسد هذا الطرح، "فالأثنوغرافيا تعبر الحدود الفاصلة بين التخصصات

وتحشد الطاقات العلمية والبحثية المتنوعة، ملقية الضوء على كل ما يحيط بالإنسان من ظروف، وعلى تفاعله مع هذه الظروف وما أحدثه من تغييرات مادية ملموسة أو معنوية وقيمية مجردة في بيئته، كما تدرس البيئة الجغرافية والطقس ووسائل العيش والتكنولوجيا المحلية والفلكلورية والأساطير وألعاب الأطفال وعلاقات القرابة.¹

ولو عدنا إلى النصوص الروائية العمانية المختارة في هذه الدراسة لوجدناها تعج بمجالات ومباحث أثنوغرافية، فسواء قصد كتابها توظيف تلك المظاهر أم لم يقصدوا، فالأمر متروك للقراءة وتحليل البنى الثقافية.

أولاً: البحث عن الذات ورحلة القنص الأثيرة في رواية القنص للكاتب زهران القاسمي.

تقودنا المغامرة القرائية في رواية القنص للكاتب العماني المتميز في أسلوبه وتوجهه في الكتابة زهران القاسمي إلى إعلان علاقة حتمية وضرورية بين السرد والتخصص الأثنوغرافي، فالرواية تعج بالمظاهر الجغرافية والإنسانية والاجتماعية من عادات وتقاليد، ففي الصفحة الأولى من الفصل الأول من الرواية نجد وصفا مكثفا للأمكنة ومظاهر الطبيعة. تسرد الرواية رحلة قنص احتراف مهنة مطاردة تيوس الوعل، وازدادت هذه الرغبة مع الأيام والسنون لتنشأ علاقة وطيدة بينه وبين تيس الوعل الذي أصبح يجاربه في المطاردة ولم يكن هدفا سهلا له. وأثناء هذه الرحلة يقودنا الكاتب من خلال السارد إلى عوالم البيئة العمانية الصحراوية المتميزة، فنقرأ: "عند مدخل كهف كبير في قمة الجبل البعيد يربض تيس الوعل، منحنيا رأسه، مغمضا عينيه، داخلا في سبات عميق.

كانت شجرة ظفر تقف أسفل المدخل تحيط بها نباتات القضب ذات الزهور اللؤلؤية الصفر، بعيداها الخضر الرقيقة، التي تتشعب ممتدة مثل سهام خارجه من كنانة قنص قديم... يتنقل طائر أبو صريد الصغير من سفح إلى آخر، يقف على غصن الشوع ثم يفارقه إلى شجرة لقم كبيرة، لا يقف في مكان واحد، إنه يقفز بين أغصان الشجرة، يطير إلى شجرة لقم أخرى نبتت في قلب حجارة الشرجة عند يمين الكهف. يغرد أبو صريد وهو يمارس انتقاله الفوضوي مائلا المكان بصوت يشبه إلى حد ما رنين سلسلة معدنية، تأخذه السفوح بين جوانبها، سرعان ما يجيبه طائر أبو صريد آخر من إحدى القمم.."² لقد تحوّل السرد في هذا المقطع إلى عرض وثائقي يصف البيئة العمانية وصفا دقيقا، وتنتشر مثل هذه المقاطع في المتن وبشكل مكثف، وفي هذا السياق تؤكد الناقدة فاطمة محسن أنك حين "تدخل الرواية (القنص) حافيا فتضطر للعودة لارتداء أقوى الأحذية لأنك ستتسلق الجبال وتطارد الوعل."³ تستعرض الرواية فضاء متخيلا مليئا بـ:

أ. أمور الفلاحة: "تعلمت أمور الفلاحة وصعود النخيل، تعلمت كيف أقيس أثر الظل ومتى يكون موعد ماء الفلج حاضرا، اقتربت أكثر من الأرض، من طينها وحشائشها وحشراحتها، حرثتها وقلبت تربتها، مشيت في مائها العكر، قطفت ثمارها واستظلت بظلاله، ثم حفظت مطالع النجوم في ليلها واستمعت إلى همس الجنيات في العتمة."⁴

ب. التأقلم مع الطبيعة: "أن تذهب إلى الجبال، يعني أن تصير كائنا جبليا متوحشا، تفهم ما تعني لك الأصوات من حولك وما تعني حركة الحشرات والطيور، حتى حفيف الشجر، لا بد لك من قراءة ما يدور في

المكان، فالظلال تقول لك شيئاً وزعيق الريح على السفوح يخبرك بالحكاية وفى الليل تعوي الثعالب متنبهة بما سيصير غداً أو أن تسهر على الصوت حتى تسكتها عن ذلك النعيب المتواصل الذي يقلق رقدتك وعليك أن تفتح أذنيك وعينيك لترى الحياة من حولك مكتملة فى كل شيء"5.

ج - أمور الصيد وأدواته: "عدّة الصيد جاهزة، حقيبة ممتلئة بكل الأشياء الهامة، دلة مع عبوة قهوة، علب الكبريت، كيس تمر، خلطة بهارات، ما يكفي من الرز والسّمك المملح، وقطع لحم المظبي المجفف، ملح، الشاي والسكر، فناجين، خبز، حذاء، مخصص لطلوع الجبال، مصباح يدوي، بطاريات، سكين، قميص، وإزار وملابس داخلية، شرشف، ناموسية، منظار، قربة الماء وقبل كل شيء البندقية وحزام الطلقات"6. لقد حمل السرد فى المقاطع السردية السابقة الذكر شحنات معرفية أثنوجرافيا تبحث فى كل ما يحيط بالقناص العماني ذلك يبحث عن ذاته من خلال البحث عن ذلك الوعل الذي يتحدها فى كل مرة.

د . أنسنة الأشياء: يحدث الكاتب زهران القاسمي علاقة أنسنة بين السارد البطل وبندقيته منطلقاً من أن "الفنان يؤسس تجليات العالم الخارجي ويدخلها إلى عمله الفني، ويدعها تقوم بدورها الإنساني الجديد، ليسهم فى خلق المناخ العام الذي يطمح أن يحققه وليجعلها تتجاوز مع الإنسان ومشاعره وأفكاره، كي تشاركه المعاناة والقهر والفرح فى الحياة، وتجيئ هذه المجاوزة نتيجة لحاجة ذاتية وفنية، تسعى إلى تفسير الأحداث تفسيراً دخيلاً متميّزاً، وتصوير الحياة تصويراً خلاقاً برؤية جديدة تتسم بالشمولية والإنسانية المطلقة"7. تظهر هذه الميزة بشكل أساسي فى العلاقة التي أقامها.

ثانياً: ثيمة البحر فى رواية الجوهرة والقبطان للكاتب زينة الكلباني.

عرف المكان الروائي تنويعات مختلفة فى مرافقته لارتحالات الرواية، فالتصقت به صفات الواقعية والوصف المادية زمن الروايات الكلاسيكية والواقعية، وما هو ينتقل زمن الرواية الجديدة من تلك الصفات إلى اللامكان، والمكان المظلم، والمجهول، وعوالم الخيال واستعادة الذاكرة باستخدام قراءة إحصائية لحجم ظهور الأمكنة فى رواية الجوهرة والقبطان نجد بروز أمكنة بعينها. مثل حضورها جزءاً مهماً فى التشكيل الفني والجمالي للرواية ككل.

ينتشر فى أنحاء الرواية عقب المكان الشعري، الهيولي الذي يدعو القارئ إلى رحلة صيد ممتعة، فالكتابة الجديدة التي تنشأ التجريب الروائي، ما هي إلا "رحلة صيد لاقتناص الروح الشعرية إن وجدت، فى المثل، فى السيرة، فى اليومي، فى التاريخي، فى الإعلان، فى المهمل، تعالج هذه المقاربات وغيرها الكثير بما تحمله من أضواء وألوان وسبل إخراج لتحوّلها إلى علامات تنتج شعرية كي يصبح الشعر كأننا لا محددًا ولا نهائياً، يهندس تناسقه من حساسية تناقضه الداخلي، ويبعث حركته الدائبة القلقة من سكونه الوهمي، وفيضا من إشعاع يخلق نظاماً فى الفوضى فى النظام ويلفت انتباه النثر إلى قابلياته الشعرية" (7). هندست الكاتبة العمانية زينة الكلباني أنظمة أمكنة فى رواية الجوهرة والقبطان⁸ وفق ثيمة البحر، فكان المحور الأساسي فى تحرك الأحداث إن لم نقل شكّل البحر لوحده شكل شخصية البطل بكل تمظهراته المختلفة. فقد ارتبط ارتباطاً بالبطل صالح، وقصة صموده وشجاعته وهو يقود سفينته، فتحوّل البحر بهذا المعنى إلى مسار من

الارتقاء السحري العجيب، حيث أصبح مساويا للأسطورة وحاملا معاني " الحياة، الكتابة، الحروب، والأحزان وهو أيضا عنصر مفاجأة للراوي / البطل في حمله أخبار من كان على متن السفينة.

وفي حقيقة الأمر فعوالم رواية الجوهرة والقبطان تقوم على القصة العاطفية المتخيّلة التي جمعت صالح بمنال وعلاقته بزوجته سعاد، " فالمشاهد المتعددة التي حفلت بها الرواية عن مواجهة السفينة الشراعية للإعصار، ولتقلبات الأجواء، وعواصف المحيط، وغضب الطبيعة العنيف، تذكرنا برواية المغامرات التي لا يقبل فيها إلا شيء واحد، وهو انتصار البطل على كل شيء .."9 فالرواية تلامس فن الملاحة العربية وبهذا فالجوانب الأثنوغرافية ترصد خصائص هذا الفن في الخليج العربي وبحر العرب، والمحيطين الهندي والأطلسي والممرات البحرية والمضايق المائية التي تربط فيما بين دول العالم القديم والحديث، فتكوّنت لوحة سردية متخيّلة محورها الأول البحر وخصائصها "الأهمية الاقتصادية والموقع الاستراتيجي للمضيق جعل منه منطقة مستهدفة لعمليات القرصنة التي تهدد أمن الملاحة البحرية واستقرار التعامل الاقتصادي بين الدول الثلاث المطلة على المضيق (أندونيسيا، وماليزيا، وسنغافورة) مما حدا بهم إلى زيادة عمليات الحراسة والتفتيش بواسطة البواخر الحربية، وذلك للحد من تنامي ظاهرة القرصنة"10.

تعكس رواية الجوهرة والقبطان العلاقة الوطيدة بين الانسان والبحر، وخاصة العماني المشهور بتقديس هذه العلاقة، " فالبحر يتهياً لوداع الشمس في سكون مهيب، تبدو السفينة أكثر عزلة حينما ادلهم الظلام، السماء مزخرفة بنجوم كثيرة، لا تستطيعون السير في البحر دون الاهتداء بالنجوم، ثمة تشابه كبير بين الملاحة البحرية والسفر في البدياء كلاهما معتمد اعتمادا كبيرا على الاسترشاد بالنجوم، ولا عجب أن يسمى الجمل بسفينة الصحراء، كل شيء له تفسير ومعنى في عرض البحر: حركة الريح، والموج، والهواء، والنجم، والغيم، والسحب"11.

دمجت الكاتبة بين البنيتين السردية والأثنوغرافية في محاولة لإنشاء فرجة معرفية وتاريخية تثبت دور السرد في تقديم الواقعي والتاريخي.

1- الخطاب السياحي في رواية ثالث وتعويدة للكاتبة زينة الكلباني .

يتجه المنجز السردى ثالث وتعويدة5 للكاتبة العمانية زينة الكلباني12 إلى تحقيق تميّز على مستوى البنية الشكلية في اختيار العنوان فثالث الموت، الخوف، الحب، يطارد بطلة الرواية نورة في رحلتها ما بين لندن وسلطنة عمان، حيث حقق الترابط النسقي بين الأحداث والشخصيات هدف الكاتبة الذي يتجسد في جذب أكبر عدد من المقروئية على مستوى التلقي، فسرد ارتحالات البطلة ما هو إلا تفرغ لخفايا المرأة العمانية، وعرض لقضاياها وتوجهاتها.

إنّ استثمار آليات البحثين السيميائي والتداولي يعمل على اكتشاف تجليات الخطاب السياحي في رواية ثالث وتعويدة، " فالسيميائية تبحث في العلامات وقوانين إنشاء الحكاية، وتفتح على الوسط المادي والتقني حتى تتجاوز الأنساق المغلقة للأثر وتفتح على الأنساق المؤلدة له فتتجاوز وصفه إلى محاولة فهمه وتأويله من منطلق عمليات استدلالية يعمل على إعادة تشكيل العمليات الإبداعية غير الواعية مستعينة

بمختلف العلوم الإنسانية استقصاء للاحتتمالات المعنى فىها"13 فحين تعمل التداولية " على إعادة بناء الحالات الخارجية المؤثرة فى تشكيل الخطاب والانتباه إلى سياقات نشأته جمالية كانت أو فكرية أو سياسية أو اقتصادية لتستخرج مقاصده التداولية، ووجهات القول فيه . كما أنها تعمل على استخراج دور القارئ أو المتفرج فى تشكيل معنى النص بضبط ما يقترح عليها من مواقع للإبصار أو الإدراك وما يفرض عليهما من العمليات الاستدلالية، ذلك أن النص آلة كسولة.8

تكشف البنية السردية فى رواية ثالث وتعويدة تمظهرات متنوعة لفضاءات تُعرّف القارئ بسلطنة عمان كمكان سياحي يستحق الزيارة، وذلك من خلال طريقي العرض والوصف من منظور الكاتبة التى تمثلها تخليلا البطلة نورة، وهى تسترجع ذكريات طفولتها فى مدينة لندن، فتحضر مظاهر التراث العمانى معرفة عن خصائصها فى مدينة الضباب لندن، من تلك التجليات:

• سباق الهجن.

تُقدّم الكاتبة زوينة الكلبانى عبر سرد بطلتها للأحداث المكان بكل حيثياته، بوصف دقيق يلامس الواقع ويتماهى معه، خاصة ما تعلق الأمر بسباق الهجن، نقرأ: "نوق تسابق الطير، وتطلق حنوقها للريح سالكة بهم سبيل من لا أوبة له، وعلى ظهورها أجساد أكثر هشاشة من ورق الخريف .. أطفال متشبثون بالخطام الذى يصلهم بالحياة أو الموت.. كمن يمسك بقشة ..لم يكن سباق الهجن يشدني، ذهبت للمضمار .. يومها غرضاء لجدتي فقط.. انضمت لصفوف المتجمهرين الشاخصة أبصارهم والمشرببة أعناقهم للميدان وبقيت جامدة كأن على رأسى الطير .."14

إذا كان سباق الهجن لا يستهوي بطلة الرواية، فهو بهذا الوصف يستهوي عشاق هذا السباق وهذه التظاهرة التراثية، يعمل هذا المقطع السردى على التعريف بمهرجان من مهرجانات سلطنة عمان الكثيرة، حيث ينتهى هذا النوع إلى التراث المادى الذى أولت له الجهات الحكومية المختصة فى سلطنة عمان الأهمية الكبرى، كونه يمثل شغفا أصيلا متجذرا فى السلطنة وباقي دول الخليج العربية باعتبارها "أحد أهم الموروثات الحضارية والثقافية التى ارتبطت تاريخيا بحياة أهل الخليج منذ القدم، وقد تطوّر الاهتمام الرسمى والشعبى بها حتى أصبحت موردا اقتصاديا هاما لكثير من مربي الإبل".10

تمثل عبارة "أطفال متشبثون بالخطام الذى يصلهم بالحياة أو الموت" التى ذكرت فى المقطع السردى شدة ارتباط العمانى بتراثه الأصيل، فقد لعبت الإبل دورا فعّالا فى حياة أجدادنا فى عابر الأزمان حيث كانت وسيلتهم للسفر والذود عن الحى، كما كانت جمالا وراحة نفسية، حيث يرجعون وحين يسرحون، ولهذا منحوها جل اهتمامهم وارتبطت ارتباطا وثيقا بحياتهم اليومية حتى غدت الناقة العمانية مضرب المثل فى بلاد الخليج والجزيرة العربية فى الجود والجودة والجمال المتميز. وعرفت عمان بالإبل ذات السلالات الأصيلة كما برع العمانيون فى اقتنائها والمحافظة عليها ورعايتها..

إنّ سباقات الهجن تعتبر حاليا مصدر رزق لشريحة كبيرة من المواطنين، خاصة وأن الهجن العمانية مشهود لها بالجودة والسبق ويتكبد أصحابها مبالغ كبيرة فى تغذيتها ورعايتها وتدريبها وتطعيمها ويبلغ مبيعاتها حاليا ما لا يقل عن مليونى ريال عمانى فى السنة.

إنّ حضور هذا الخطاب في الرواية دليل واضح على انتشار هذه الظاهرة وإعجاب الكُتّاب بتفاصيلها فعرفوا بها، وقدّموها كشكل تراثي يجب تقديمه للقارئ، "فانفتحت بذلك الرواية على خطابات متباينة تعود إلى أجناس مختلفة، وهذا يعني أن الرواية العربية في تحولاتها وإنجازاتها الجديدة، لم تعد متقيدة بالبداية مما يلائم المستوى المحلي، بل انفتحت على مغامرة الرواية في تجلياتها وأبعادها الكونية،"15 وانفتحت بدورها الرواية العمانية على التراث، فكان التوظيف فعالاً في إبراز تاريخ البلاد وفاعليته في بناء المستقبل واستقطاب الآخر.

ثانياً: فرقة العيالة.

تعمل علامات سيميائية منتشرة هنا وهناك في رواية ثالوث وتعويدة على إرشاد القارئ وتوجيهه، فكانت المرشد السياحي الذي يعرف بالتراث العماني، وقد أسهمت أنواع المناصصات في تحقيق هذا الهدف، والمناصصات قسم من أنواع المتعاليات النصية في عالم الرواية وهو ما يسمى paratexte " ويشمل جميع المكونات التي تهم عتبات النص نحو: العنوان والعنوان الفرعي والعنوان الداخلي والديباجات والحواشي والرسوم ثم نوع الغلاف، إضافة إلى كل العمليات التي تتم قبل إنتاج النص من مسودات وتصاميم غيرها "13 ورد تعريف فرقة العيالة في حواشي الرواية وبالضبط في شكل إحالات في الأسفل. اهتمت بتعريف هذا الجانب التراثي نقراً: "رقصة شعبية تشتهر بها محافظة الظاهرة عبارة عن صفين متقابلين من الرجال يلوحون بعصيمهم وهم يرددون الأهازيج الشعرية في حركات متناسقة، يتوسطهم في الحلبة عدد من قارعي الطبول، ويرقص بينهم حاملو السيوف والبنادق"14

إنّ هذا الحرص الشديد في تقديم تعريف دقيق لهذه الرقصة يثبت مرة أخرى مدى اهتمام الكاتبة بالتراث والتسويق له عبر الكتابة الروائية، فمنّ العيالة من أبرز فنون الرقص الشعبي في عمان، إلى جانب فنّ الرزحة والعازي وهو من "الفنون الرجالية حيث يعتبر من فنون الشجاعة ويصطف فيه المشاركون صفين متقابلين ويتبادلون الغناء بشلة بيت واحد يرددها الصفين على التوالي حتى تتم أبيات القصيدة، وتميل الحركة في العيالة إلى البطء حيث يؤديه الرجال في شكل صفين متوازيين يقبض كل منهما بالصف بجاره بينما يقبض باليد الأخرى بالخيزران ويحركها على حسب الإيقاع من الأعلى إلى الأسفل، والإيقاع المستخدم في هذا الفن يكون ثلاثياً باستخدام آلات إيقاعية مختلفة تختلف من منطقة إلى أخرى فيستخدم طبل الكاسر والطبل الرحماني والدف والطاسة وكذلك طبل الرنة "16 إنّ استقطاب القارئ هو هدف هذه المقاطع السردية المتتالية والمبنية على ذكر جوانب تفصيلية عن هذه الرقصة الشعبية.

ثالثاً: وصف البيوت العمانية.

يتصفّ البيت العماني بالعديد من الخصائص الشكلية التي تجعل منه فضاء تعرض من خلاله علاقة العماني بعباداته وتقاليده وتجلياتها في الحياة اليومية، حيث يعمل أسلوب الوصف على تقديم البيت العماني من الناحية السياحية للقارئ قصد زيارته واكتشاف تفاصيل بنائه، نقراً: " اتخذت خالتي مريم من الصالة النسائية ركناً خاصاً بها له طابعة المميز الذي يدل على حسها المرهف.. تكسوه أوراق الجدران العناية باللون التي تتأثر فيها الأشكال الهندسية الدقيقة المائلة للون الذهبي.. وثمة لوحتان معلقتان على الجدار. ساعدت خالتي في اختيارهما من سوق مطرح عبارة عن حلي نسائية من الفضة الخالصة، الأولى عبارة عن مرية ذات

نقوش جميلة تتدلى منها السلاسل المطعمة بالياقوت الأحمر، والثانية عبارة عن خلاخيل تستخدمها الفتيات قديما فى الأرجل، ثم تثبيت كل منهما على قماش من المخمل العنابي بدقة، وأحكم إغلاقهما بزجاج مؤطر ببرواز يجمع بين اللونين الذهبى والعنابي .. " 16 تحرص الكاتبة على تجميع القدر الكافى من المعلومات والذكريات والمرجعيات الثقافية والتاريخية . ولعل هذه الطريقة فى الوصف تعيدنا إلى عوالم الملاحم الإغريقية التى تعتمد على الدقة فى الوصف والترابط بين المقاطع السردية، على المنوال نفسه نقرأ :

" وأسفلها طاولة عتيقة مشغولة بالحديد أودع عليها بعناية راديو كلاسيك بحجم كبير يعود إلى الأربعينيات من القرن العشرين .. تعزبه خالتي كثيرا، فقد أهداها إياه ناصر حينما عاد من المغرب منذ عشر سنوات " 17

تمتزج الألوان العنابية والفضية مع الطابع الكلاسيكي لصالة الجلوس، فتخصص الكاتبة الصفحة الآتية لوصفها، نقرأ: " المساند العنابية الجميلة التى تجلس عليها خالتي وهى تحوك التلي * وبجانها مندوس ** صنع فى نزوى، يضيف على المكان لمسة جمالية ساحرة، وعلى الجدار روزنة *** وضعت عليها صينية العطور المذهبة، والتى تضم زجاجات العطر المرسومة بشفافية وتفوح منها روائح العود، والمخلط والورد، والمخمرية **** وثلاثة أنواع من البخور الطفاري وحطب العود المبخرة وماء الورد الجبلي، وبجانها بروازن أحدهما صورتها بيرقتها الجميل وهى تتوسط ابنتها (ميرة، وميثة) وصورة أخرى تجمع ولديها (ناصر وعبد العزيز). كانت كعادتها كل ضحوة منشغلة بجدل ضفائر التلي هذه الضفائر التى ازدادت بها ملابسنا صباح العيد، فزهونا بها صغارا ونحن نتمنطق الأحزمة المصوغة من الذهب نتباهى بها بين أترابنا " 18

تُطلّ العادات والتقاليد التراثية العمانية من خلال هذا المقطع السردى، وقد ازدادت بأنواع مختلفة من العلامات التى تجمع الحركة واللون والرائحة، فالحركة تمثلها عملية خياطة التلي، واللون تمثله الصينية المذهبة، والرائحة يمثلها ذلك الخليط من العود والورد.

إنّ الوصول إلى القارئ والاستحواذ على اهتمامه هو هدف الكاتبة، فتعرض عليه ألوانا من التراث العماني بأساليب سردية مغرية تعمل على استمالاته، وبث عنصر التشويق بكل آليات السرد المقدمة كالمناصصات الموجودة أسفل الصفحة التى تزود القارئ بمعلومات عن أغلب المصطلحات التراثية الموجودة فى المقطع السردى السابق، فنجد :

* التلي : فن من فنون التطريز تمارسه النساء فى محافظة الظاهرة وبعض المحافظات فى عمان ودولة الإمارات، ويستخدم فى تزيين الجلابيات النسائية .

** المندوس : وهو صندوق خشبي.

*** روزنة : رف محفور فى الجدار.

**** المخمرية : خلطة من العطور العربية توضع على الجسم أو الشعر.

هذا وتُظهر الكاتبة فى رواية ثالث وتعويدة مظهرها من مظاهر التقاسم الثقافى بين دول شبه الجزيرة العربية، وخاصة ما تعلق الأمر بسلطنة عمان ودولة الإمارات العربية المتحدة، وهذا ما جسده شخصية سعود الإماراتي، وكما استرجعت البطلة ذكريات طفولتها واستدعت سباقات الهجن فى عمان، ها هو سعود يقدم جانبا تراثيا فى دولة الإمارات وهو تربية الصقور وصيدها، وهو مظهر ثقافى تراثى مشترك بين أغلب دول

الخليج العربي، نقرأ: "أخذت عن والدي شغف الصيد بالصقور، لقد عرف عنه قدرته على تدريب إثنين من الصقور في وقت واحد، واشتهر في أبوظبي بشاعر الطرائد، ومن طول ملازمتي له في رحلاته اكتسبت منه مهارة ترويض الصقور، واستئناس الطيور الجارحة، التي علمتني الصبر والجلد والقوة.. لطالما ردد أبي على مسامعنا: القنص يربي الرجال ويجلو الهم ويذهب الحزن.. إن الحر أو الشاهين يحتاجان في تدريبهما إلى وقت يتراوح ما بين ثلاثين إلى أربعين يوماً يستطيعان بعدها أن يتعرفا إلى صاحبهما وسماع نداءه وتلبية أوامره والذي يفضل الصقر الحر، لأنه طائر قنوع وأكثر تهديبا وهدوءا عن سائر الجوارح.. يسكن الأغوار والكهوف وصدوع الجبال وأنا يستهوني الصيد بالشاهين، فهو من أسرع الجوارح وأشدّها ضراوة في ملاحقة الطريدة، تدهشني مناوراتها واستعراضاته الأخاذة في تعقيب فريسته قبل أن يحكم قبضته عليها. أتعلمين يا نورة أن صقر الشاهين حساس ورقيق، ولفرط هشاشته يُشبه الزجاج؟" 19

لا يشكّل القنص بالصقور ملمحا ثقافيا فحسب، فأهل الخليج وخاصة في دولة الإمارات يعدونها رياضة وهواية تناقلوها عن الأجداد، فالصقر رمز القوة ودليل على عزة النفس، فبرع أهل أبوظبي منذ قديم الزمان وحتى الآن، في معرفة حسن آداب وتدريب وترويض الصقر ومعاملته وهذا لا يتجزأ من تراث عريق.

تمتلك الكاتبة دراية واسعة بهذا التراث في محاولة منها لإثبات ترابط العلاقات بين سلطنة عمان ودول الخليج العربي، فهو امتداد جغرافي واحد يضم أمة تشترك في العادات والتقاليد، فللكاتبة ثقافة واسعة عن هواية صيد الصقور، تغوص في عوالمها وتسبح في مسمياتها وخصائصها فتذكر الصقر الحر، والصقر الشاهين وغيرهما.

إنّ عوالم رواية ثلوث وتعويذة ساحرة يفوح منها عبق التراث ومظاهره المتنوعة، رواية تقود القارئ في رحلة سياحية مجانية التكاليف يتعرف من خلال بنيتها السردية على أهم مكونات البيت العماني وهندسته المتميزة، كما يتعرف على أهم تظاهراته الثقافية كسباق الهجن وغيرها من تجليات التراث العماني العتيق.

ثالثا: التراث ووصف البيئة العمانية في أعمال الكاتب خالد الكندي.

من بين العلاقات الإبداعية المتميزة التي يمكن لقارئ السرد العماني أن يستنجد بها علاقة الكاتب العماني بتراثه. إن قراءة عدد معين من منجزات السرد العماني سواء أكان قصة أو رواية أو مسرحية يؤكد التوجه القوي إلى التراث والتاريخ باعتبارهما مادة خام ينهل منهما الكاتب القوالب والأشكال لصبّ قضايا الوطن والأمة والإنسانية، من الكتاب العمانيين الذين جسّدوا هذه العلاقة بشكل مباشر وصرح الكتاب العماني خالد بن سليمان الكندي من خلال العديد من منجزاته الإبداعية من مثل: رسالة إلى قورش، حكايات من نخل، الجاعد الأبيض، القافر، أم الدويس، مرارة الذئب.

يبدو أن الكاتب قد حدد توجهه في الكتابة من خلال الاعتراف من منبعين أصيلين هما: التراث و التاريخ، ففي رواية القافر اتجه خالد إلى التراث، فأعلنها صراحة على الغلاف: " في سلسلتنا حكايات من التراث العماني نجتهد في كل عدد في تحوير حكاية شعبية إلى قصة ذات صبغة فنية تتضمن مشاهد مشوّقة، تروى لجيلنا الحاضر الحياة التي عاشها أجدادنا وأبائنا. فتقرب إلهم صورة ذلك الزمان على خصوصية أدواته. وسمات شخصه. ووظروف بيئاته.

مكّنت فطنة الكاتب خالد الكندى من أن يتحوّل إلى قافر يبحث فى التراث، ويمحص الحكايات الشعبية التى يمكن تحويلها إلى مادة سردية لها تشكيلها الخاص، وتسهم فى تحويل النص إلى متعة وفائدة، فالمتعة تكمن فى جمالية الناحية الفنية كاستراتيجية اختيار الشخصيات وتحديد مساراتها السردية والعلاقات والأدوار التى تربط بينها، ورسم البنيتين المكانية والزمانية، ولأن كل كاتب يبحث عن التميّز، فقد تفرّد خالد الكندى بموضوع القفر، وهو مجال يكاد يجهله القارئ.

ترتكز البنية السردية فى حكاية القافر على المسار السردى الذى اتخذته عصابة سلام الشاب الذى الذى امتن القفر إلاّ أنه استغل هذه الموهبة فى أمور سلبية كخداع الناس والسرقه. لقد أراد خالد الكندى بقصد أو بغير قصد تحويل القارئ إلى قافر محلل يبحث عن نهاية لذلك الصراع الخفى بين الوالى وسلام، فأثت الحكاية على مجموعة من العناوين الفرعية: شهقة، نهاية المرسى، الشبح، عودة المشوق، شفاعه، اللصوص، ياسر نعمة، شيمة وكرم، شجار، مهنة جديدة، صراع الدخان، الاختبار، الغبن، مقارعة العقول، لص الشياه، مجادله، العملية الكبرى، الخطة، الوكر، ابتعاث، السيج، القزم، الخدعة، مسائل نحوية، المطاردة، تقريع، مرسى(بركاء)، هجوم، ضيافة، إقلاع، المحاكمة.

تسهم هذه العناوين الفرعية فى تتبع مسار السرد، وتساعد القارئ فى فهم الحكاية، والتمتع بحسّها البوليسى الذى يجذبه إلى سحر الألفاظ، ومقارعة العقول، نقراً: "بدأت تتبع الخيط من أشجار الموز.. فعلى الرغم من أن تراب(وقف الصاروج) كان مملوءاً بأثار الأقدام التى لا تنقطع عن مرورها عليه، فإن الأثار التى تكررت كثيراً تحت أشجار الموز المسروقات كانت أثار النعل وحذاءه، فأما النعل فهى نعل الوالى التى لظالما رأيت أثارها فى أرض الحصن وخارج بوابته وفى السوق فحفظتها عن ظهر قلب، وأما الحذاء، فهو حذاء العساكر، حذاء هم ليس له إلاّ نقش موحد يعرفه الجميع..." 20

تخللت حكاية القافر العديد من الآليات التجريبية فى القص كتوظيف الأسلوب البوليسى فى الحكى - كما قلنا سابقاً. ومحاولة تلقين القواعد النحوية بواسطة السرد، وهو نوع من الجمع بين الثقافة السردية وملكة النحو مثاماً ورد فى الجزء المعنون "مسائل نحوية"، فلم يكبح الكاتب حبه للنحو العربى، فراح يلحن بعضاً من قضاياه على لسان الوالى، وهو يجتمع بطلابه نقراً: "وخلاصة القول يا أبنائى فى مسألة مطابقة الفعل للفاعل فى العدد أن الفعل إذا تقدّم على الفاعل فإنه يبقى مفرداً حتى لو كان الفاعل مثنى أو جمعاً، فانت تقول (حضر الرجل) و(حضر الرجلان) و(حضر الرجال).." 21

يعد التاريخ المنبع الأساسى الثانى الذى يغترف منه الكاتب خالد الكندى، وقد سار بذلك على خطى الجيل الأول من كتاب الرواية العربية فى العصر الحديث كجورجى زيدان وطه حسين، وتوفيق الحكيم، ونجيب محفوظ وغيرهم. ولعل رواية الجاعد الأبيض تعكس النفس الطويل فى الكتابة، ومدى التطوّر الذى يشهده السرد العماني فى الآونة الأخيرة، والرواية منجز يؤكد تمسك الكاتب العماني بتاريخه وإعادة تمثله ليسرد قضايا الراهن. تحضر شخصية العلامة والمصلح أبى زيد عبد الله بن محمد الرّيامى (1884:1945) شخصية محورية فى رواية الجاعد الأبيض، وقد استلها الكاتب من التاريخ العماني مركزاً على ضرورة أخذ العبر والدروس من أحداث الماضي، فالتاريخ سجل لا يمكن تغييبه خاصة وأن شخصية الإمام العلامة

شخصية فاعلة في النهوض بقرى ومدن عمان في الحربين العالمية الأولى والثانية، وهي فترة صعبة لا نطاق. قدمت الرواية المشروع الإصلاحي للعلامة، فكانت بهلاء نموذجا اقتصاديا واجتماعيا ناجحا. مسّت زواياه الإصلاحية :

. الجانب الاقتصادي، حيث قام العلامة بإصلاح الأفلاج، واستغلال الأراضي، وتخزين الحبوب، فازداد بذلك مخزون بيت المال.

. الجانب الاجتماعي: أمر بتزويج العزاب، ومساعدة الفقراء.

. الجانب التعليمي: التشجيع على التعلم، وحفظ القرآن الكريم.

. الجانب الأمني: عمّ الأمن، واختفى قطاع الطرق الذين كادوا له المكائد بمساعدة التجار الذين لم تعجبهم هذه الإصلاحات.

لم ينس الكاتب تقديم الجوانب الشخصية للعلامة، فذكر أساليب تعامله مع أهل بيته، وكيف كان يحثهم على الزهد والتقشف، حتى بعد وفاته لم يترك إلا جاعدا أبيضاً، ومن هذه التركة الزهيدة انتقى الكاتب خالد الكندي عنوان الرواية.

ولأنّ الكاتب يدرك جيداً أنّ المادة التاريخية تكون - في أغلب الأحيان - ثقيلة على القارئ فقد طعمها بالمتخيّل السردى الذي يتحد مع الجانب التاريخي في إضاءة جوانب من الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية في منطقة إزكي خاصة قصص الأطفال ومرحهم وقصة سرقة الأمبا، وقصة الثور.. إنّ محاولة بثّ الحس الفكاهي للسرد التاريخي في بعض المقاطع السردية من الرواية لهي الطريقة المثلى لتكسير تتابع الأحداث التاريخية، نقرأ من رواية الجاعد الأبيض: "ثم أردف مسلم يتابع حكايته:

. وأنتم تعرفون أن خميسان حاشكم يرّبي كلبا.. ويربط هذا الكلب بسلسلة حديد. ضُغط على حروف كلمة سلسلة حديد مفخما هالتهما، فاهتزت رؤوس الحاضرين متفاعلة مع فخامة الحديد، قبل أن يواصل مسلم فيهبط بنغمته قائلاً: لكنها سلسلة حديد خفيفة جدا. شعرت عقول الحاضرين أن مسلم يستهتر بها، لكن قلوبهم لم تطاوع عقولهم، بل ظلت معلقة لاصقة المثيرة وأسلوبه الجذاب.."²²

يبدو أن الكاتب العماني خالد الكندي قد اختار الطريق الأصعب الذي يتطلب دراية واسعة بالتاريخ والتراث، وهو الطريق ذاته الذي سلكه رواد الأدب العربي الأوائل. منجزاته تستحق الدراسة والمتابعة، وهي منفذ أدبي للاطلاع على التراث العماني والتعرّف على شخصياته التاريخية.

إذن، ومن خلال ما سبق تتضح للقارئ خصائص الرواية العمانية التي أثبتت انفتاحا واسعا على عوالم المعرفة، فتحوّلت بذلك إلى وثيقة معرفية إثنوغرافية تحاكي قضايا المجتمع العماني وتختص بتقديم معلومات وأحداث عنه، فكان المتن الروائي العماني فسحة للقارئ عرف من خلالها طريقة تفكير العماني وأهم علاقاته وأحواله النفسية والاجتماعية والثقافية والسياسية والتاريخية، دون إغفال الأنساق الثقافية المضمرّة التي تختفي وراء هذا الخطاب السياحي الممرر من خلال البنية السردية الموظفة، من مثل نقد المؤسسات الثقافية والتاريخية والاجتماعية. والجدير بالملاحظة أنّ الرواية العمانية لا تخفي الكثير من

المضمرة مقارنة بنظيرتها فى المشرق والمغرب، وهذا لطبيعة المجتمع العماني الذي لم يتعرض إلى هزات سياسية واجتماعية عنيفة مثلما هو واقع فى أغلب بلدان الشرق الأوسط وبلدان المغرب العربي.

الإحالات:

1. هيلين توماس، الأجساد الثقافية، الإثنوغرافيا والنظرية، ت: أسامة الغزولي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، العدد 1595، ط1، 2010، ص12.
2. زهران القاسمي، القنّاص، مسعى للنشر والتوزيع، ط2، 2018، ص11.
3. م ن، الغلاف الخلفى للرواية.
4. م ن، ص92.
5. م ن، ص97، 98.
6. م ن، ص17.
- 7- محمد صابر عبيد، مرايا التخيل الشعري، عالم الكتب الحديث، الأردن 2006، ص22.
8. زوينة الكلباني، الجوهرة والقبطان، بيت الغشام للنشر والترجمة، سلطنة عمان، مسقط، 2014.
9. ابراهيم خليل، البطل المثالي فى رواية الجوهرة والقبطان لزوينة الكلباني، جريدة الوطن، الأربعاء 7 يوليو 2021، alwatan.com
10. الرواية، ص188.
11. م ن، ص51.
12. أحمد القاسمي، التقبل السينمائي للقص الأدبي، مقارنة سيميائية تداولية، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، ط1، 2017، ص27.
13. زوينة الكلباني، ثلوث وتعويدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 2011، ص28.
14. طارق أشقر، سباق الهجن فى عمان.. شغف أصيل، موقع الجزيرة 30 أكتوبر 2012.
15. محمد برادة الرواية العربية، بين المحلية والعالمية، مجلة الرواية وممكنات السرد، أعمال الندوة الرئيسية لمهرجان القرين الثقافي، 11 ديسمبر 2004، الكويت، ج1، 2008، ص11.
16. عبد القادر بقرشي، التناس فى الخطاب النقدي والبلاغي بأفريقيا الشرق، 2007، ص22.
17. الرواية، ص134.
18. الرواية، ص101.
19. الرواية ص102.
20. خالد الكندي، القافر، مؤسسة بيت الغشام للنشر والترجمة، مسقط سلطنة عمان، 2013، ص60.
21. الرواية، ص102.
22. خالد الكندي، الجاعد الأبيض، مؤسسة بيت الغشام للصحافة والنشر والإعلان سلطنة عمان، مسقط، 2019، ص29، 30.

قائمة المصادر والمراجع

أ. المصادر:

- خالد الكندي، الجاعد الأبيض، مؤسسة بيت الغشام للصحافة والنشر والإعلان سلطنة عمان، مسقط، 2019.
- خالد الكندي، القافر، مؤسسة بيت الغشام للنشر والترجمة، مسقط سلطنة عمان، 2013.

- زهران القاسمي، القنّاص، مسعى للنشر والتوزيع، ط2، 2018.
- زوينة الكلباني، الجوهرة والقبطان، بيت الغشام للنشر والترجمة، سلطنة عمان، مسقط، 2014.
- زوينة الكلباني، ثلوث وتعويدة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط2، 2011.
- ب. المراجع:
- ابراهيم خليل، البطل المثالي في رواية الجوهرة والقبطان لزوينة الكلباني، جريدة الوطن، الاربعاء 7 يوليو 2021.
- أحمد القاسمي، التقبل السينمائي للقص الأدبي، مقارنة سيميائية تداولية، مجمع الأطرش للكتاب المختص، تونس، ط1، 2017.
- طارق أشقر، سباق الهجن في عمان.. شغف أصيل، موقع الجزيرة 30 أكتوبر 2012.
- عبد القادريقشي، التناص في الخطاب النقدي والبلاغي بأفريقيا الشرق، 2007.
- محمد برادة الرواية العربية، بين المحلية والعالمية، مجلة الرواية وممكنات السرد، أعمال الندوة الرئيسية لمهرجان القرين الثقافي، 11 ديسمبر 2004، الكويت، ج1، 2008.
- محمد صابر عبيد، مرايا التخيل الشعري، عالم الكتب الحديث، الأردن 2006.
- هيلين توماس، الأجساد الثقافية، الأثنوغرافيا والنظرية، ت: أسامة الغزولي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، العدد 1595، ط1، 2010.